الفصح في السنة الليتورجيّة

المتقدّم في الكهنة الأب ألكسندر شميمن

في مركز حياتنا الليتورجيّة، في قلب ذلك الزمن الذي نقيسه بالسنة، نَجِدُ عيد قيامة المسيح. فما هي القيامة؟ في هذا العالم الذي يسيطر عليه الزمن، وتاليًا الموت، القيامة هي ظهورٌ لحياةٍ لن تكون لها نهاية. والذي قام من بين الأموات لن يموت بعد. في عالمنا هذا، لا في مكانٍ آخر، لا في عالمٍ لا نعرفه على الإطلاق، بل في عالمنا، ظهر ذات صباحٍ شخصٌ هو فوق الموت، ومع ذلك، كان في زماننا. إنّ معنى قيامة المسيح، هذا الفرح العظيم، هو موضوع المسيحيّة المركزيّ، وقد حفظَتْهُ الكنيسة الأرثوذكسيّة في نقائه. ثمّة قدرٌ كبيرٌ من الحقيقة يعبِّر عنها أولئك الذين يقولون إنّ الموضوعَ المركزيّ الحقيقيّ للأرثوذكسيّة، ومركزَ خبرتها كلّها، والإطارَ المرجعيّ لكلّ شيءٍ آخر، هو قيامة المسيح.

المركز الذي يعطي اليوم معنىً للأيّام كلّها، وتاليًا للعصور كلّها، هو الاحتفال السنويّ بقيامة المسيح في عيد الفصح. هذه هي النهاية والبداية دائمًا. نحن نعيش دائمًا بعد عيد الفصح، ونتّجه دائمًا نحو عيد الفصح. وهذا عيد هو أقدم عيدٍ مسيحيّ. يكمن جوهر الحياة الليتورجيّة الكنسيّة ومعناها في هذا العيد، بالإضافة إلى فترة الخمسين يومًا التي تليه، والتي تبلغ ذروتها في عيد العنصرة، حلول الروح القدس على الرسل. وينعكس هذا الاحتفال الفريد بعيد الفصح كلّ أسبوعٍ في يوم الأحد المسيحيّ، والذي نسمّيه (باللغة الروسّية "Voskresenie") يوم القيامة. إن خصّصتُم بعض الوقت لقراءة نصوص صلاة صباح الأحد، لأدركتُم، مع أنّه قد يبدو غريبًا لكم، أنّ لدينا فصحًا صغيرًا في كلّ يوم أحدٍ. أنا أقول "فصحًا صغيرًا"، لكنّه في الواقع "فصحٌ عظيم".

تأتي الكنيسة كلّ أسبوعٍ إلى التجربة المركزيّة نفسها: "إذ قد رأينا قيامة المسيح...". وفي كلّ ليلة سبت،[1] عندما يحمل الكاهن الإنجيل من المذبح إلى وسط الكنيسة، بعد أن يقرأ إنجيل القيامة، تُعلَن الحقيقة

[1] هذه الصلاة هي في السحرية، والكلام على السبت مساءً هو على أساس أنّ كل سبت تُقام سهرانية تبدأ بالغروب فالساعات فالسحرية فالقداس، بخاصة في التقليد الروسي.

الأساسيّة عينها في إيماننا المسيحيّ: المسيح قام! يقول القدّيس بولس: "إن لم يكن المسيح قد قام فباطلٌ إيمانكم". ما من شيءٍ آخر يمكن تصديقه. هذا هو المركز الحقيقيّ، ولا يمكننا أن نفهم السنة الليتورجيّة بأكملها إلّا بالإشارة إلى عيد الفصح باعتباره نهاية الزمن الطبيعي كلّه، وبداية الزمن الجديد الذي يجب علينا كمسيحيّين أن نعيش فيه. إذا فتحتُم التقويم، ستجدون أنّ جميع أيّام الآحاد عندنا تُسمّى "الأحد كذا بعد العنصرة"، والعنصرة نفسها تقع بعد الفصح بخمسين يومًا. عيد العنصرة هو إتمامُ عيد الفصح.

صعد المسيح إلى السماء وأرسل روحه القدّوس. وعندما أرسل روحه القدّوس إلى العالم، تمّ تأسيس مجتمع جديد، مجموعة من الناس. وعلى الرغم من بقاء هذه المجموعة في هذا العالم ومشاركتها في حياته، فقد اتّخذت معنى جديدًا. وهذا المعنى الجديد يأتي مباشرةً من قيامة المسيح. لم نعُد أشخاصًا نعيش في الزمن وكأنّ ذلك عمليّة لا معنى لها تجعلنا نتقدّم في السنّ أوّلاً ثمّ تنتهي بزوالنا. لم يُمنح لنا معنىً جديدٌ للحياة فحسب، بل حتّى الموت نفسه اكتسب أهمّيّةً جديدة. نقول في طروباريّة الفصح: "وطئ الموت بالموت". لا نقول إنّه وطئ الموت بالقيامة، بل بالموت.

لا يزال المسيحيّ يواجه الموت كتحلّلٍ للجسد، كنهاية؛ ولكن في المسيح، في الكنيسة، بسبب الفصح، بسبب العنصرة، لم يعد الموتُ النهاية فحسب، بل صار البداية أيضًا. هو ليس أمرًا لا معنى له، ولا يعطي طعمًا لا معنى له للحياة. الموت يعني الدخول في فصح الربّ. هذه هي النغمة الأساسيّة، واللحن الأساسيّ للسنة الليتورجيّة في الكنيسة المسيحيّة. المسيحيّة هي قبل كلّ شيءٍ إعلان قيامة المسيح في هذا العالم. والروحانيّة الأرثوذكسيّة فصحيّةٌ في محتواها الداخليّ، والمحتوى الحقيقيّ لحياة الكنيسة هو الفرح. نحن نتحدّث عن الأعياد. العيد هو تعبيرٌ عن فرح المسيحيّة.

الشيء الحقيقيّ الوحيد، بخاصّةٍ في عالم الطفل، والذي يتقبّله الطفل بسهولة، هو الفرح على وجه التحديد. لقد جعلْنا مسيحيّتَنا بالغة النضج، وجدّيّةً جدًّا، وحزينةً جدًّا، ومهيبةً جدًّا إلى درجة أنّنا أفرغناها تقريبًا من هذا الفرح. ومع ذلك، فقد قال المسيح نفسه: "إن لم ترجعوا مثل الأطفال لن تدخلوا ملكوت الله". أن تصبح طفلاً بحسب مصطلحات المسيح يعني أن تكون قادرًا على أن تفرح ذلك الفرح الروحيّ الذي يكاد يكون الشخص البالغ غير قادرٍ عليه تمامًا. الدخول في تلك الشركة مع الأشياء، مع الطبيعة، مع الآخرين من دون

شكٍّ في الخوف أو الإحباط. كثيرًا ما نستخدم مصطلح "النعمة". ولكن ما هي النعمة؟ الخاريزما في اليونانيّة لا تعني النعمة فحسب، بل الفرح أيضًا. "وسأعطيكم الفرح الذي لن ينزعه أحدُ منكم...". إذا شدّدتُ على هذه النقطة كثيرًا، فذلك لأنّني متأكّدٌ من أنّه إذا كانت لدينا رسالة لشعبنا، فهي فرحة الفصح التي تبلغ ذروتها في ليلة عيد الفصح. وعندما نقف على باب الكنيسة ويقول الكاهن "المسيح قام"، يصبح الليل، على لسان القدّيس غريغوريوس النيصصيّ، "أخفّ من النهار". هذه هي القوّة السرّيّة، الجذر الحقيقيّ للخبرة المسيحيّة. فقط في إطار هذا الفرح يمكننا أن نفهم كلّ شيءٍ آخر.

نقلها إلى العربيّة الأب أنطوان ملكي المغبوط الذكر

Source: Protopresbyter Alexander Schmemann (1963). “Easter in the Liturgical Year”. Excerpts from the lecture “The Sanctification of Life” at the *Third Annual Church School Conference* sponsored by the Metropolitan Council Religious Education Committee, July 1963. Link.